

صيغ وأساليب التوكيد في سورة الفاتحة وأثرها في بيان المعاني

عبدالله صالح¹عيدي حمدي الفطاني²

ملخص

أُسْتُخْدِمَ أسلوب التوكيد في القرآن الكريم في التفسير لبعض القضايا ، مثل تأكيد صفاته تعالى ، يُوَكِّدُ حين يَعِدُّ أو يُوعِدُّ ، ويؤكد حين يدعو للعقائد ، وحين يدعو للعبادات، وحين يدعو للمعاملات ، ويؤكدها سواء كانت خبراً محل إنكار أو شك. لذا، سيكون التركيز في هذه الدراسة العلمية على سورة الفاتحة من خلال دراسة الآيات التي ورد فيها التوكيد من كتب التفسير القديمة والحديثة وبيان معانيها، وذلك للوقوف على أوجه الاتفاق والاختلاف ومناقشة الأقوال ثم بيان الخلاصة منها. فالقرآن الكريم كان ولازال قبلةً للعلماء والباحثين.

كلمات استفتاحية: صيغ، وأساليب التوكيد، وبيان المعاني.

مقدمة

يَكثُرُ استعمال التوكيد بصورة المختلفة في القرآن الكريم ، ويكون دوره في إزالة الشكّ والإنكار من المِثْلَقِي حين يكون شاكاً أو مُنْكَرِاً ، ويهدف استخدام صيغ وأساليب التوكيد في القرآن الكريم في تفسير قضايا معيَّنة فالتوكيد يُوَكِّد صفاته تعالى، ويؤكد حين يدعو للعبادات ، وحين يدعو للعقائد ، وحين يدعو للمعاملات، وكما يُوَكِّدُ كلَّ خبر هو محلّ شكّ أو إنكار.

¹ دكتوراة في قسم التفسير وعلموه، كلية دراسات القرآن والسنة، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية - نيلاي. (abdulloh@usim.edu.my)

² المحاضر في قسم اللغة، مركز الدراسات العامة، الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور - بانجي. (idi.hamdi@kuis.edu.my)

سورة الفاتحة :-

التفسير الإجمالي للآية:

● قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾³.

نجد أن سورة الفاتحة وهي سبع آيات باتفاق ، وسبع وعشرون كلمة ومائة وأربعون حرفاً. اختلف العلماء في نزولها ف قيل نزلت بمكة⁴ وهو قول أكثر العلماء. وقيل نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد. وقيل نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها⁵.

نبدأ بالبسملة هل هي آية من الفاتحة أم لا ؟ فيه أقوال:-

- قال ابن العربي في تفسير الأحكام القرآن: في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، اتفق الناس على أنها آية من كتاب الله تعالى في سورة النمل ، واختلفوا في كونها في أول كل سورة ، فقال مالك وأبو حنيفة : ليست في أوائل السور بآية ، وإنما هي استفتاح ليعلم بها مبتدؤها⁶. واستدلوا بقول : أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال :

" كان يصلى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما"⁷.

- وقال الشافعي : هي آية في أول الفاتحة⁸ ، قولاً واحداً ؛ وهل تكون آية في أول كل سورة ؟ اختلف قوله في ذلك ؛ فأما القدر الذي يتعلق بالخلاف من قسم التوحيد والنظر في القرآن وطريق إثباته قرآناً ، ووجه اختلاف المسلمين في هذه الآية منه ، فقد استوفيناها في كتب الأصول ، وأشرنا إلى بيانه في مسائل الخلاف ، ووددنا أن الشافعي لم يتكلم في هذه المسألة ، فكل مسألة له فيها إشكال عظيم⁹.

³ سورة الفاتحة : الآية 1.

⁴ هي أشرف بقعة في الأرض وبها بيت الله الحرام ، أنظر: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله. ب. ت ، معجم البلدان ، ط/1 ، دار الفكر - بيروت ، 181/5.

⁵ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم . 1979م. باب التأويل في معاني التنزيل ، للحازن ، دار الفكر - بيروت - لبنان ، 15/1.

⁶ محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي. 2003م. أحكام القرآن ، وعلق عليه : محمد عبد القادر عطا، منشورات ، محمد علي بيضوت ، ط/3 ، دارالكتب العلمية، بيروت - لبنان ، 2/1 ، بتصرف ، محمد أبو زهرة ، ب. ت ، زهرة التفاسير ، دار الفكر العربي، القاهرة ، 45/1.

⁷ أخرجه النسائي ، في سنن النسائي ، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي. 1986م. تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة، ط/3 ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، باب ترك الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ، 134/2 ، رقم 906 ، صحيح الإسناد.

⁸ محمد بن محمد العمادي. 1983م. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ط/1 ، داراحياء التراث العربي ، بيروت- لبنان ، 8/1 ، بتصرف يسير، وانظر:

الشيخ أبو علي الفضيل بن الحسن الطبرسي. 1994م. مجمع البيان في تفسير القرآن ، دارالفكر ، بيروت - لبنان ، 21/1.

⁹ أحكام القرآن ، لابن العربي ، 2/1 ، بتصرف ، زهرة التفاسير ، الإمام أبو زهرة ، 45/1.

فائدة الخلاف : في ذلك الذي يتعلق بالأحكام أن قراءة الفاتحة¹⁰ شرط في صحة الصلاة عندنا ، وعند الشافعي واجب في الصلاة ، وأنا أرجح قول الشافعي لأنه استدلل بحديث أبي هريرة ، قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله رب العالمين سَبَّحَ آيَاتِ أَوْلَاهُنَّ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، وَهِيَ السَّبَّحُ الْمَثَانِي وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَهِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ " ¹¹ ، وهو أرجح من حديث أنس رضي الله عنه . خلافا لأبي حنيفة حيث يقول : إنها مستحبة ، فتدخل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في الوجوب عند من يراه ، أو في الاستحباب¹² .

- تكلم الإمام القرطبي في معنى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قائلاً (قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة ، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق ، وإني أفي لكم بجميع ما ضمننت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبري . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مَّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِنَا وَعَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ خُصُوصًا بَعْدَ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ)¹³ .

وقال أيضا : وسنّ للعبد أن يُقُولَ بِسْمِ اللَّهِ . عند الأكل والشرب ، ولبس الثوب . وعند دخول المسجد والخروج منه ، وعند الركوب . وعند كل أمر ذي بال لأنه ورد حديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - : كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز و جل فهو أبتَر أو قال أقطع¹⁴ .
- قال أبو حيان في تفسير الآية (باء الجر تأتي لمعان : للإلصاق ، والاستعانة ، والقسم ، والسبب ، والحال ، والظرفية ، والنقل . فالإلصاق : حقيقة مسحت برأسي ، ومجازاً مررت بزيد . والاستعانة : ذبحت بالسكين . والسبب : ﴿ فَبَطَّلِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ... ﴾¹⁵ . القسم : بالله لقد قام . والحال : جاء زيد بثيابه . والظرفية : زيد بالبصرة . والنقل : قمت بزيد . وتأتي " الباء " زائدة للتوكيد :

¹⁰ قال النبي - صلى الله عليه وسلم (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) أخرجه البخاري في الصحيح ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله . 1987م . كتاب بدء الوحي ، ط1 ، دار الشعب - القاهرة ، 193/1 ، رقم الحديث 756 .

¹¹ أخرجه البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي . 2000م . شعب الإيمان ، تحقيق : أبي هاجر محمد السعيد بن بسويوني زعلول ، محمد علي بيضون ، باب تخصيص فاتحة الكتاب بالذكر ، ط1 ، دارالكتب العلمية - بيروت - لبنان ، 336/1 ، رقم الحديث 738 ، وهو صحيح .

¹² أحكام القرآن ، لابن العربي ، 2/1 .

¹³ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله . 2003 م . الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : سمير البخاري ، ط1 ، دار عالم الكتب ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 91/1 .

¹⁴ أخرجه أحمد بن حنبل في سنده ، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، 2001 م . مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المحقق : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد ، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، رقم الحديث 8697 ، إسناده ضعيف .

¹⁵ سورة النساء ، الآية 160 .

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ¹⁶ .

والبدل : فليت لي بهم قوما أي بد لهم¹⁷ .

- قال: ابن سيده : التكرار في الوصف ، ويكون إما لتعظيم الموصوف ، أو للتأكيد، ليتقرر في النفس¹⁸ .

- وفي بيان معنى الآية قال القرطبي :

وفي الآية (يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب ، ويستغني عن الاستشهاد ، والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد¹⁹ : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لا يخيب آمله²⁰ .

وقد ذهب العلامة ابن عاشور إلى رأي آخر يراه الأكمل والأولى ، حيث يقول (الاستدلال من طريق الاستعمال العربي فيأتي القول فيه على مراعاة قول القائلين بأن البسمة آية من سورة الفاتحة خاصة، وذلك يوجب أن يتكرر لفظان وهما ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ في كلام غير طويل ليس بينهما فصل كثير وذلك مما لا يحمد في باب البلاغة، وهذا الاستدلال نقله الإمام الرازي في تفسيره وأجاب عنه بقوله: إن التكرار لأجل التأكيد كثير في القرآن وإن تأكيد كونه تعالى رحمانا رحيمًا من أعظم المهمات. ودفع ابن عاشور جواب الرازي بأن الفاتحة لا مناسبة لها بأغراض التكرير ولا سيما التوكيد لأنه لا منكر لكونه تعالى رحمانا رحيمًا ، ولأن شأن التوكيد اللفظي أن يقتزن فيه اللفظان بلا فصل فتعين أنه تكرير اللفظ في الكلام لوجود مقتضى التعبير عن مدلوله بطريق الاسم الظاهر دون الضمير، وذلك مشروط بأن يبعد ما بين المكررين بُعْدًا يُقْصِيهِ عن السمع، وقد علمت أنهم عدوا في فصاحة الكلام خلوصه من كثرة التكرير ، والقرب بين الرحمن والرحيم حين كررا يمنع ذلك²¹ .

¹⁶ هذا صدر بيت لأبي ذؤيب الهذلي ، أنظر : عبد القادر البغدادي . 1998م. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق : محمد نبيل طريفي/اميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 97/7 ، أبي الفتح عثمان بن جني ، سر صناعة الإعراب ، ط/1، دار القلم - دمشق ، ص:424.

¹⁷ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي . 2001م. البحر المحيط ، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معرض ، والأخرون ، منشورات محمد علي بيضوت ، ط/1، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، 27/1. بتصرف يسير.

¹⁸ علي بن إسماعيل بن سيده. ب.ت. إعراب القرآن ، د.ط، 3/1.

¹⁹ هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربيعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنف كتاب السنن في الحديث؛ كان إماما في الحديث عارفا بعلومه وجميع ما يتعلق به، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر ، وله تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح، وكانت ولادته سنة تسع ومائتين. وتوفي يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين، أنظر : أبو العباس ابن خلكان. 1998م. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: يوسف علي الطويل ، مريم قاسم الطويل، ط/1، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، 279/4.

²⁰ الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي 105/1، باختصار.

²¹ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي . 2000م. التحرير والتنوير ، ط/1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، 139/1 ، بتصرف يسير.

والخلاصة: أن في التكرار قولين : قال علي بن عيسى²². إنما كرّر للتوكيد ، وقال قاسم بن حبيب²³. إنما كرّر لأنّ المعنى وجب الحمد لله لأنه الرحمن الرحيم²⁴.

من هذا نقول: من خلاصة ومضمون الأقوال التي ذهب إليها المفسرون في معنى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهو معنى سياقي لا يمكن أن يتحصل بصورة لغوية أخرى، إلا أن يكون في شكل توكيدي يحدث من خلال مشاكلة لفظية بين صفتين مشتقتين من الرحمة بصيغتين مختلفتين مما يعني وجود فرق معنوي بينهما وليس مجرد تأكيد صفة واحدة وهو ما تقرر عندهم.

ونرى أنه القول الراجح ، والأولى بالصواب لإجماعهم ، واتفاقهم في ذلك سوى ابن سيدة الذي قال إن التفسير الأكمل هو التكرار في الوصف ، وليتقرر في النفس ، احتمال على معنى تأكيد.

● قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) ﴾²⁵.

- قال الطبري في بيان معنى قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الحمد :ثناء أثنى به الله على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، أي: قولوا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ وَالْأَلْفِ وَاللَّامِ فِي " الْحَمْدُ " لاستغراق الجنس من المحامد، ولفظ الجلالة " لِلَّهِ " هو الذي يأله كل شيء ، ويعبده كل خلق، الرب : السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر.

"وَالْعَالَمِينَ " : والعالم اسم لأصناف الأمم ، وكل صنف منها عالمٌ، وأهل كل قَرْنٍ من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالمٌ، وكل أهل زمان منهم عالمٌ ذلك الزمان. والجنُّ عالمٌ، وكذلك سائر أجناس الخلق²⁶.

"الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " : رحمان بجميع خلقه في الدنيا بما يمن عليهم من النعم ، والرحيم في الآخرة بالمؤمنين الذين اتبعوا دينه²⁷.

²² هو علي بن عيسى بن عبد الله أبو الحسن الرماني وكان يعرف أيضا بالإخشيدي وبالوراق ، وهو بالرماني أشهر؛ كان إماما في العربية ، علامة في الأدب في طبقة الفارسي والسيرواني ، ولد سنة ست وسبعين ومائتين ، ومات سنة 384هـ ، له مؤلفات منها : التفسير ، شرح أصول ابن السراج ، والمعلوم والمجهول ، وغيرها. أنظر : السيوطي. 1979م. بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل، د.ن، 180/2-181 ، الخطيب البغدادي . 1997م. وتاريخ بغداد ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 16/2.

²³ قاسم بن حبيب النحوي ذكره الزبيدي في الطبقة الرابعة من النحاة بالقيروان ، وذكره الإمام السيوطي في بغية الوعاة، 2/25.

²⁴ محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى . د.ت. أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مراجعه وتعليق : أحمد عبدالنواب عوض ، دار الفضيلة. ص : 20.

²⁵ سورة الفاتحة : الآية 2-4.

²⁶ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري. 2000 م. جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/1، مؤسسة الرسالة، 137-149. باختصار

²⁷ نفسه مرجع، 137-149. باختصار.

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾²⁸ : قال أبو جعفر: القراء مختلفون في تلاوة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). فبعضهم يتلوه (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وبعضهم يتلوه (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بنصب الكاف. أي: أن الله الملك يوم الدين خالصا دون جميع خلقه ، والدين في هذا الموضع الحساب والمجازاة بالأعمال²⁹.

وفي تلك المعنى يقول أبو حيان الأندلسي: (مالك يوم الدين) دلالة على إثبات المعاد والحشر والحساب ، ولما اتصف تعالى بالرحمة ، انبسط العبد وغلب عليه الرجاء ، فنبه بصفة الملك أو المالك ليكون من عمله على وجل ، وأن لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خير وشر³⁰.

- قال ابن عاشور رحمه الله عليه :

قوله تعالى : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) كالتأكيد والتأكيد خلاف الأصل ولا داعي إليه هنا، إلا أن يجاب بأن العالمين لا يشمل إلا عوالم الدنيا ، فيحتاج إلى بيان أنه ملك الآخرة كما أنه ملك الدنيا ، وإن كان الأكثر في كلام العرب ورود الرب بمعنى الملك والسيد وذلك الذي دعا صاحب الكشاف إلى الاختصار على معنى السيد والملك وجوز فيه وجهي المصدرية والصفة، إلا أن قرينة المقام قد تصرف عن حمل اللفظ على أكثر موارد إلى حملة على ما دونه³¹.

- قال الإمام الطبري - رحمه الله: أعلم أن جملة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) توكيدية لجملة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فإن ظن ظان أن قوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) نبأ عن ملكه إياهم في الدنيا دون الآخرة، يوجب وصل ذلك بالنبأ عن نفسه أنه من ملكهم في الآخرة على نحو ملكه إياهم في الدنيا بقوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فقد أغفل وظن خطأ، وذلك أنه لو جاز لظان أن يظن أن قوله (رَبِّ الْعَالَمِينَ) نبأ عن ملكه إياهم في الدنيا دون الآخرة، يوجب وصل ذلك بالنبأ عن نفسه أنه: مَنْ مَلِكِهِمْ فِي الآخرة على نحو ملكه إياهم في الدنيا بقوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) - فقد أغفل وظن خطأ. وذلك أنه لو جاز لظان أن يظن أن قوله (رَبِّ الْعَالَمِينَ) محصورٌ معناه على الخبر عن ربوبيّة عالم الدنيا دون عالم الآخرة ، مع عدم الدلالة على أن معنى ذلك كذلك في ظاهر التنزيل ، أو في خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم به منقول ، أو بحجة موجودة في المعقول ... كان واضحاً فساد قول من زعم أنّ تأويله: ربُّ عالم الدنيا دون عالم الآخرة، وأنّ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) استحقَّ الوصل به ليعلم أنه في الآخرة من ملكهم وربوبيتهم بمثل الذي كان عليه في الدنيا³².

²⁸ قوله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) سورة آل عمران : الآية 19 .

²⁹ تفسير الطبري ، 137-149 . باختصار، المرجع السابق.

³⁰ البحر المحيط ، لأبي حيان ، 12/1 .

³¹ التحرير والتنوير ، 164/1 .

³² جامع البيان في تأويل القرآن ، المرجع السابق، 151/1-152.

نقول: أن المعنى الذي أورده ، ويبيّن الإمام الطبري جاء متفقاً مع أقوال أئمة التفسير³³ إلا ابن عاشور، فلا تفاوت ، ولا اختلاف في الجملة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) توكيدية لجملة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . من هذا يمكن القول أن الراجح والأولى بالصواب هو قول ابن جرير الطبري، لأن الجملة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) على التأكيد لجملة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أولى وهذا ذكر الخاص بعد العام يدل على التوكيد لمعنى الخاص وأهميته ، وغرض التوكيد هنا تقرير الكلام وتشبيته في نفس السامع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾³⁴. قال أبو جعفر الطبري: في تأويل قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ): لك اللهم نُخْشَعُ وَنَذِلُّ وَنَسْتَكِينُ ، إقراراً لك يا ربنا بالرُّبُوبية لا لغيرك³⁵.

هذه الآية فيها تكرار (إياك) وهو ضرب في موضعين والتكرار من ضروب التوكيد قال محمود بن عبد الرحيم صافي³⁶. قوله تعالى سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كرّر الله سبحانه وتعالى (إِيَّاكَ) لأنه لو حذفه في الثاني لفاتت فائدة التقديم وهي قطع الاشتراك بين العاملين إذ لو قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ) لم يظهر أن التقدير إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ أو إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ، وإنه لم يقل نَسْتَعِينُكَ مع أنه مفيد لقطع الاشتراك بين العاملين وذلك لكي يفيد الحصر بين العاملين³⁷.

ويقول ابن عطية الأندلسي تكررت (إِيَّاكَ) بحسب اختلاف الفعلين ، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام³⁸.

- وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل خالف ابن جزري الإمام ابن عطية ، فنجد أن ابن جزري أورد أقوالاً تخالف ما بيّنه وبين ابن عطية ، وذلك في قوله «إِيَّاكَ في الموضوعين مفعول بالفعل الذي بعده ، وإنما قدّم ليفيد الحصر فإنّ تقديم المعمولات يقتضي الحصر ، فاقترضى قول العبد إياك نعبد أن يعبد الله وحده لا شريك له، واقترضى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) اعترافاً بالعجز والفقر وأنا لا نستعين إلا بالله وحده»³⁹.

³³ منهم : ابن عطية : 1993م. عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي في تفسيره (المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام ، ط/1، دار الكتب العلمية، 5/1) ، وابن عادل 1998م. وهو : عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي في تفسيره (الباب في علوم الكتاب، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية . بيروت، 10/1)، والألوسي . 1415 هـ. وهو شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي في تفسيره (روح المعاني، دار الكتب العلمية . بيروت، 77/1) ، وغير ذلك.

³⁴ سورة الفاتحة : الآية 5.

³⁵ جامع البيان في تأويل القرآن ، لأبي جعفر الطبري ، 157/1.

³⁶ سبق ترجمته ص : 10

³⁷ محمود بن عبد الرحيم صافي. 1418 هـ. الجدول في إعراب القرآن ، ط/4، دار الرشيد مؤسسة الإيمان ، دمشق ، 27/1 .

³⁸ المحرر الوجيز ، لابن عطية الأندلسي 76/1.

³⁹ محمد بن أحمد بن محمد بن جزري الكلبي الغرناطي المالكي . 1995م. التسهيل لعلوم التنزيل ، تحقيق: محمد سالم هاشم، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 33/1.

- يقول ابن عاشور «أعيد لفظ (إِيَّاكَ) في الاستعانة دون أن يعطف فعل (نَسْتَعِينُ) على (نَعْبُدُ) مع أنهما مقصودان جميعاً كما أنبأ عنه عطف الجملة على الجملة لأن بين الحصرين فرقا، فالحصر في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) حقيقي والحصر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ادعائي فإن المسلم قد يستعين غير الله تعالى كيف وقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁴⁰ ولكنه لا يستعين في عظام الأمور إلا بالله ولا يعد الاستعانة حقيقة إلا الاستعانة بالله تعالى⁴¹.

- وفي تفسير ابن كثير⁴²: قدم المفعول وهو (إِيَّاكَ) ، وكرّر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إِيَّاكَ، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين⁴³.

اختلفت الأقوال في تفسير قوله تعالى (إِيَّاكَ) وأرجح قول ابن عطية عن قول ابن جزري لأن ابن عطية وافق بقية المفسرين وخالفهم ابن جزري كما وافقهم ابن كثير.

والقول: (إِيَّاكَ) مفعول مقدم ، والأصل في الترتيب أن يأتي محله بعد الفعل والفاعل ، فالتقديم هنا إفادة التأكيد بأسلوب الحصر والقصر، والحصر يفيد إخلاص العبادة لله في إِيَّاكَ نعبد ؛ فمعناه لا نعبد إلا إِيَّاكَ، والحصر يفيد إخلاص الاستعانة بالله عزّ وجلّ في إِيَّاكَ نستعين.

لذا، نقول أن : المعنى الذي أورده، وبينه الإمام ابن عطية جاء متفقاً مع ابن جزري ومحمود صافي، فلا تفاوت، ولا اختلاف في معنى إِيَّاكَ نعبد وإِيَّاكَ نستعين ، ويحمل على معنى التوكيد.

ومن فوائد تقدم عبادة العبد الاستعانة ما قاله محمود بن عبد الرحيم صافي (قدم العبادة على الاستعانة مع أن الاستعانة مقدمة، لأن العبد يستعين الله على العبادة ليعينه عليها، وذلك لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، والاستعانة هي ثمرة العبادة ، ولأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها)⁴⁴ ، اتفق أبو حيان⁴⁵ ، والفخر الرازي⁴⁶ في المعنى والمضمون لتفسير هذه الآية .

⁴⁰ سورة المائدة : الآية 2.

⁴¹ التحرير والتنوير ، 186/1.

⁴² هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الفقيه الشافعي الحافظ عماد الدين ابن الخطيب شهاب الدين وكنيته أبو الغداء ، محدث ، مؤرخ ، مفسر ، فقيه ، من تصانيفه : مختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، البداية والنهاية في التاريخ ، توفى في شهر شعبان بدمشق سنة 774 هـ . أنظر : السيوطي، د.ت. طبقات الحفاظ ، د.ن، موقع الوراق، 112/1 ، عمر رضا كحالة . د.ت. معجم المؤلفين ، 283/2 ، أحمد بن محمد الأدنوي. 1972م. طبقات المفسرين ، تحقيق: علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، 260/1.

⁴³ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. 1999 م. تفسير القرآن العظيم، المحقق : سامي بن محمد سلامة ، ط/3، دار طيبة للنشر والتوزيع ، 134 /1.

⁴⁴ الجدول في إعراب القرآن، 28/1 ، وانظر: محمد بن علي بن محمد الشوكاني. 1993م. فتح القدير ، حقّقه وخرجه أحاديثه وفهرسها : سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، ط/1، دارالحديث - القاهرة ، 25/1 ، التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزري 33/1.

⁴⁵ البحر المحيط ، لأبي حيان ، 42/1.

⁴⁶ فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي . 2000م. مفاتيح الغيب ، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 199/1.

- وخلاصة ما قررتة الآية من خلال ما أورده المفسرون من معنى ، نقول:
المقصود، والهدف من ذكر (إياك نعبد وإياك نستعين) في الآية للدلالة على آداب الدعاء حيث يقدم
السائل بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه وتمجيده . وزادت السنة الصلاة على النبي [صلى الله عليه
وسلم] ، ثم يسأل حاجته فإنه يستجاب له . وكذلك التنبيه على أن لا يعبد غير ربه . وأن لا يستعينه إلا
هو سبحانه وتعالى⁴⁷ .

المقصود والمراد من تكرار الله سبحانه وتعالى (إياك) لأنه لو حذفه في الثاني لفاتت فائدة التقديم وذلك
لكي يفيد الحصر بين العاملين وبعضهم قال: وقدم المفعول وهو (إياك) ، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا
نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. وأرى: أن جملة تكرار الحصر هنا تحمل على
معنى التوكيد.

● قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾⁴⁸ .

- قال البغوي في تفسير قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي وغير الضالين⁴⁹ ، عن الهدى، وأصل الضلال الهلاك
والغيوبة، يقال: ضل⁵⁰ ، الماء في اللبن إذا هلك وغاب. وغير هاهنا بمعنى لا، ولا بمعنى غير ولذلك جاز
العطف كما يقال: فلان غير محسن ولا مجمل. فإذا كان غير بمعنى سوى فلا يجوز العطف عليها بلا ولا يجوز
في الكلام: عندي سوى عبد الله ولا زيد.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين. وقيل:
المغضوب عليهم هم اليهود والنصارى لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب⁵¹ ، فقال:
﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾⁵² .

وفي فتح القدير يقول الشوكاني :

⁴⁷ جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبوبكر الجزائري . 2003م. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، ط/5، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ، 4/1 .

⁴⁸ سورة الفاتحة: الآية 7.

⁴⁹ عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» أخرجه الترمذي في سننه ، محمد بن عيسى الترمذي السلمي.
ب.ت. باب سورة الفاتحة ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 204/5، رقم الحديث 2954.

⁵⁰ هو: ضياع الشيء وذهابُه في غير حَقِّه، من مادة : ضلّ أنظر : مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. 1991م. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/1،
دار الجليل ، بيروت، 273/3.

⁵¹ محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي . 1997م. معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تحقيق: محمد النمر، وعثمان جمعة ، وسليمان الحرش، ط/4، دار
طيبة، 55/1.

⁵² سورة المائدة : الآية 60.

(لا) في قوله : (ولا الضالين) تأكيد للنفي المفهوم من غير ، والضلال في لسان العرب قال ابن منظور: هو الذهاب عن سَنَنِ القصد ، وطريق الحق ، ومنه ضلَّ اللبن في الماء ، أي : غاب ، ومنه ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾⁵³ ، أي : غبنا بالموت ، وصرنا تراباً⁵⁴ .

- وأورد السمين الحلبي في الدرُّ المصنُون:

أنه قال اعلم أنّ (لا) في قوله : (وَلَا الضَّالِّينَ) (زائدةٌ لتأكيد معنى النفي المفهوم من غير لئلا يُتَوَهَّم عَطْفُ (الضَّالِّينَ) على (الذين أَنْعَمْتَ) وقال الكوفيون : هي بمعنى (غير) ، وهذا قريبٌ من كونها زائدةً ، فإنه لو صُرِّحَ ب (غير) كَانَتْ للتأكيد أيضاً⁵⁵ .

- وفي بيان معنى الآية قال ابن عاشور:

وقوله: (وَلَا الضَّالِّينَ) معطوف على (الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ) كما هو متبادر، قال ابن عطية: قال مكي ابن أبي طالب: إن دخول (لا) لدفع توهم عطف (الضالين) على (الذين أنعم عليهم)، وهو توجيه بعيد فالحق أن (لا) مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من لفظ "غير" على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيز النفي نحو قوله ﴿ ... أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ... ﴾⁵⁶ وهو أسلوب في كلام العرب⁵⁷ .

- ويتضح بعد هذا الاستعراض للأقوال، والروايات المختلفة أن المعنى الذي أورده الشوكاني متفق مع ما أورده المفسرون. وهو الراجح عندي والأقرب إلى الصواب ، لأنه يتفق مع مقصدنا من البحث لورود التوكيد فيه وهو أبين وأوضح.

قلت : دخول (لا) في قوله تعالى (وَلَا الضَّالِّينَ) مع أن الكلام بدونها كاف في المقصود ، وفائدته تأكيد النفي دلّ عليه (غيره)⁵⁸ .

يلاحظ : دخول (لا) الزائدة لتوكيد النفي ، أنها من جهة المعنى، تعين دخولها في الآية لئلا يتوهم عطف (الضالين) على (الذين) .

⁵³ سورة السجدة : الآية 10.

⁵⁴ فتح القدير ، 29/1، وانظر: د هبة بن مصطفى الزحيلي. 1418 هـ. التفسير المنير ، ط/2، دار الفكر المعاصر - دمشق، 55/1.

⁵⁵ السمين الحلبي . 1986م. الدرُّ المصنُون في علوم الكتاب المكنون ، تحقيق الدكتور أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، 74/1 ، محي الدين الدرويش . د.ت.

وإعراب القرآن وبيانه ، دار الإرشاد ، سورية . 74/1.

⁵⁶ سورة المائدة ، من آية 19.

⁵⁷ التحرير والتنوير ، 198/1 ، المرجع السابق

⁵⁸ جدول في إعراب القرآن، 30/1. يتصرف، وانظر: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. د.ت. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت،

لبنان، 6/1.

المصادر والمراجع

- ابن جزى الكلبي. تحقيق محمد سالم هاشم، 1995م، التسهيل في علوم التنزيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- أبو العباس ابن خلكان. تحقيق يوسف علي الطويل و مريم قاسم الطويل، 1998م، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. تحقيق سامي بن محمد سلامة، 1999 م، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. 2003م، لسان العرب، دون طبعة، دار الحديث، القاهرة.
- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي. تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، 1998م، اللباب في علوم الكتاب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أبي الفتح عثمان بن جني، 1985م، سر صناعة الإعراب، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق.
- أبي حيان. تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض، 2001م، البحر المحيط، منشورات محمد علي بيضوت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي. تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، 1986م، سنن النسائي، الطبعة الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني. 1379هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دون طباعة، دار المعرفة، بيروت.
- أحمد بن محمد الأذنروي. 1997م، طبقات المفسرين، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.
- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبوبكر الجزائري. 2003م، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الطبعة الخامسة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. 1976م، طبقات المفسرين، الطبعة الأولى بدون مكان الطباعة.
- الخطيب البغدادي. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، 1997م، تاريخ بغداد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- السمين الحلبي. تحقيق الدكتور أحمد الخراط، 1986م، الدرُّ المصون في علم الكتاب المكنون، دون طبعة، دار القلم، دمشق.

- السيوطي. بدون تاريخ، طبقات الحفاظ ، دون طبعة، مصدر الكتاب : موقع الوراق.
- السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل، 1979م بغية الوعاة، الطبعة الثانية، بيروت.
- شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي. تحقيق على عبد الباري عطية، 1995م، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية. بيروت.
- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق مركز هجر للبحوث، 2003م، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دون طبعة، دار هجر، مصر.
- عبد القادر بن عمر البغدادي. 1998م، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، دون طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم. 1979م، لباب التأويل في معاني التنزيل، دون طبعة، دار الفكر بيروت - لبنان.
- الفخر الرازي. 2000م، التفسير الكبير، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- القرطبي، تحقيق سمير البخاري. 2003 م، الجامع لأحكام القرآن، دون طباعة، دار عالم الكتب، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- محمد أبو زهرة. بدون تاريخ، زهرة التفاسير، دون طبعة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. بدون تاريخ، التحرير والتنوير، دون طبعة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري. 2000 م، جامع البيان في تأويل القرآن، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة.
- محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي. تحقيق شعيب الأرنؤوط، 1993م، صحيح ابن حبان بترتيب الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي. 2003م، أحكام القرآن، منشورات محمد علي بيضوت، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- محمد بن علي بن أحمد الداودي. 1972م، طبقات المفسرين، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقلال الكبرى.
- محمد بن محمد العمادي. 1983م، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى. بدون تاريخ، أسرار التكرار في القرآن، المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دار الفضيلة.

مود بن عبد الرحيم صافي. 1998م، الجدول في إعراب القرآن، الطبعة الرابعة، مؤسسة الإيمان، دمشق -
ورية.

بي الدين الدرويش. بدون تاريخ، إعراب القرآن وبيانه، دون طبعة، دار الإرشاد - سورية.
بنة الزحيلي. 1991م، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر ،
وت - لبنان.

نوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، بدون تاريخ، معجم البلدان ، دون طبعة، دار الفكر، بيروت.